المبحث الأول

صفات الله تعالى

يقول جعفر السبحاني: "فمنطق العقل القطعي يعد مقياساً لتصحيح ما يعزى إلى منطق الوحي، وما لا يعزى إليه، وعلى ضوء ذلك فالروايات الصريحة في إثبات الجهة لله تبارك وتعالى، وفي إثبات الجبر، وسلب الحرية والاختيار عن الإنسان فيما يناط به الإيمان والكفر، كلها تخالف العقل الحصيف ... كما أن الموجود في جهة موجود محدود، والمحدود من آثار الإمكان، وهو سبحانه منزه عنه وعن آثاره".[1]

ويقول: "فأكثر المحدثين المغترين بروايات مستسلمة أهل الكتاب، ككعب الأحبار، وتميم الداري، ووهب بن منبه، وغيرهم، ممن بثوا في الأوساط الإسلامية الإسرائيليات والمسيحيات، كانوا هم القائلين بالجبر والتجسيم والتشبيه".[2]

ويقول خالد بن مبارك الوهيبي: "وروايات التجسيم والتشبيه هي مخالفة لقواطع النصوص القرآنية، التي تنزه الله سبحانه وتعالى عن الأنداد والأشباه والأضداد: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[3]، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[4]، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[5]".[6]

تتضمن هذه النقولات ما يلي:

١- أن الروايات الصريحة في إثبات الجهة لله تخالف العقل.

---

[1] الحديث النبوي بين الرواية والدراية، للسبحاني، ص٦٢، ٦٣.

[2] المرجع ا لسابق، ص٦٤.

[3] سورة الشورى: آية ١١.

[4] سورة الأنعام: آية ١٠٣.

[5] سورة النحل: آية ٧٤.

[6] كيف نتعامل مع السنة النبوية، للوهيبي، ص٤.

٢- أن الروايات الصريحة في إثبات الجبر، وسلب الاختيار عن الإنسان، فيما يناط به من الإيمان والكفر، تخالف العقل.

٣- أن الروايات الدالة على التجسيم والتشبيه (إثبات الصفات) مروية عن مستسلمة أهل الكتاب، وهي روايات إسرائيلية ومسيحية.

٤- أن الروايات الدالة على التجسيم والتشبيه (إثبات الصفات) مخالفة للنصوص القرآنية.

والجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن إثبات الجهة لله تبارك وتعالى، وهي الفوقية والعلو له سبحانه، لم يثبت بالسنة فقط، بل ثبت بالكتاب العزيز، يقول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.[١] ويقول سبحانه: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾.[٢] ويقول جل وعلا: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾.[٣] ويقول تقدست أسمائه وصفاته: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾.[٤] والآيات في هذا كثيرة.

أما تأويل هذه الآيات عند نفاة الصفات، وما سنعرضه من آيات في ذلك، فإن الكلام حول ذلك يطول، وكما قال شارح العقيدة الطحاوية: "و لا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها، إلا وجد إلى ذلك من السبيل، وهو الذي أفسد الدنيا والدين".[٥]

---

[١] سورة الأنعام: آية ٦١.

[٢] سورة النحل: آية ٥٠.

[٣] سورة البقرة: آية ٢٥٥.

[٤] سورة فاطر: آية ١٠.

[٥] شرح العقيدة الطحاوية، ص ١٨٩.

الثاني: أن العقل الصريح يثبت لله العلو، فإن ذلك أمر مفطور في قلوب الناس، يعلمون بالضرورة أن الله فوق، وإذا وقع أحدهم في اضطرار نظر إلى العلو، يستلهم المدد من الله، والخلق جميعاً بفطرتهم السليمة يرفعون أيديهم ويقصدون جهة العلو عند الدعاء والتضرع إلى الله تعالى.

الثالث: أن المحدثين لا يقولون بالجبر وسلب الحرية والاختيار للعبد، وما صححوه من الأحاديث ليس فيه ذلك، بل هم وسط بين الجبرية . وعلى رأسهم الجهم بن صفوان . والقدرية نفاة القدر.

أما الجبرية فهم القائلون بأن العبد مجبور على فعله وحركاته، وهي كلها اضطرارية، كحركات المرتعش، والعروق النابضة. وقابلتهم القدرية . ومنهم المعتزلة . فقالوا: إن جميع أفعال العباد اختيارية لهم، لا تعلق لها بخلق الله، وأن الله لم يردها ولم يشأها.[1]

أما المحدثون من أهل السنة فيعتقدون أن لله مشيئة، وللخلق مشيئة واختياراً تابعَيْن لمشيئة الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، والعباد فاعلون حقيقة لأعمالهم ولهم كسب وإرادة، والله خلقهم وخلق أعمالهم وإرادتهم.[2]

الرابع: أن عقيدة المحدثين من أهل السنة في القدر . والتي سبق ذكرها . لم ترد في السنة فحسب، بل وردت في القرآن الكريم، الذي تكرم الباحثان بتحاكمهما إليه، يقول الله تعالى في بيان مشيئته: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾.[3] ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾.[4] وذكر سبحانه أنه خلَقَ العباد وأعمالهم: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ

---

[1] انظر: المرجع السابق، ص ٤٣٦.

[2] انظر: المرجع السابق، ص ٤٤، ٤٥.

[3] سورة البقرة: آية ٢٥٣.

[4] سورة الأنعام: آية ١٢٥.

وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ [1] ومع ذلك فأعمال العباد إليهم تنسب، ويجازون على أعمالهم المضافة إليهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾.[2] ويقول سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.[3] وجمع الله بين مشيئته ومشيئة العباد في قوله جل وعلا: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.[4]

وهذا فيه مصداق لما جاء في السنة، وتصديق لعمل المحدثين فيما صححوه من الأحاديث الدالة على ذلك، إذا أردنا أن ننقد المتن بالثوابت الصحيحة.

الخامس: أن المحدثين من أهل السنة، ليسوا بالمجسمة المشبهة .كما يقول الكاتبان . ولكنهم وسط بين المشبهة والمعطلة، فأهل السنة يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تشبيه، فلا يُقال سمع كسمعنا، ولا بصر كبصرنا، ونحو ذلك، وكذلك من غير تعطيل، فلا ننفى عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به أعرف الناس به، رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. ففي قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾، رد على الممثلة المشبهة، وفي قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾،[5] رد على النفاة المعطلة.[6]

والعجيب أن خالد الوهيبي نقل في كلامه قول الله تعالى: (ليس كمثله شيء)، ووقف عند ذلك، ولم يكمل الآية: (وهو السميع البصير).

---

[1] سورة الصافات: آية ٩٦.

[2] سورة البقرة: آية ١٩٧.

[3] سورة الزخرف: آية ٧٢.

[4] سورة التكوير: آية ٢٨، ٢٩.

[5] سورة الشورى: آية ١١.

[6] انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ص ٥٢٠.

السادس: أن إثبات الصفات لله تعالى لم تثبت بطريق السنة فحسب، بل ثبتت بالقرآن الكريم، يقول الله تعالى في صفة المحبة: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾.[1] ويقول في صفة المغفرة: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.[2] ويقول في صفة الرحمة: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾.[3] ويقول في صفة الرضا: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾.[4] ويقول في صفة الغضب: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾.[5] إلى غير ذلك من آيات الصفات، وهي كثيرة في القرآن، وهذا فيه تصديق لعمل المحدثين فيما صححوه من الأحاديث الدالة على ذلك، إذا أردنا أن ننقد المتن بالثوابت الصحيحة.

السابع: أن صفات الله تعالى لا تثبت بالعقل، وإنما تثبت بالشرع، فهي توقيفية، يتوقف إثباتها على ما جاء عن الشرع، فلا يزاد فيها ولا ينقص، لأن العقل مهما بلغ من الكمال فإنه لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله سبحانه من الصفات، فهو الله الذي وسع كرسيه السماوات والأرض، فوجب التسليم في ذلك بما أخبر به الشرع.

الثامن: أما قول جعفر السبحاني: "فأكثر المحدثين، المغترين بروايات مستسلمة أهل الكتاب، ككعب الأحبار، وتميم الداري، ووهب بن منبه، وغيرهم، ممن بثوا في الأوساط الإسلامية الإسرائيليات والمسيحيات، كانوا هم القائلين بالجبر والتجسيم والتشبيه". اهـ. فليت شعري، لو أجهد السبحاني نفسه قليلاً، وقلب صحيحا البخاري ومسلم، لوجد أن

---

[1] سورة البقرة: آية ١٩٥.

[2] سورة ص: آية ٣٨.

[3] سورة الدخان: آية ٤٢.

[4] سورة البينة: آية ٨.

[5] سورة النساء: آية ٩٣.

كل ما فيهما من الروايات التي فيها إثبات الصفات والقدر هي من غير طريق من ذكرهم من الصحابة والتابعين، إلا النادر، ولولا خشية الإطالة لسردت الكثير من ذلك.

ثم إن الصحابي سواءً كان قبل إسلامه من أهل الكتاب أم لا، لا يمكن أن يقول لنا: قال رسول الله كذا، ويكون قد نقله من الإسرائيليات، فهذا كذب، وهم أبعد الناس عن ذلك.

المبحث الثاني

أحاديث العقل

يقول جعفر السبحاني:

"والعجب أن بعض المقتصرين على الضوابط المقررة في علم الحديث، بغية تمييز الصحيح عن السقيم، يتبجح عند نقد روايات العقل، ويقول: ومما يحسن التنبيه عليه أن كل ما ورد في فضل العقل من الأحاديث لا يصح منها شيء، وهي تدور بين الضعف والوضع.[1] ثم [2] نقل عن ابن قيم الجوزية قوله: "أحاديث العقل كلها كذب". [3] وأول حديث نقده ذلك البعض، هو حديث: "الدين هو العقل، ومن لا دين له لا عقل له". [4] وذكر في موضع آخر بأن رواية: "قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له" موضوعة. [5]

أقول (السبحاني): إن الغاية من وراء تضعيف أحاديث العقل ... هو التساهل أمام الروايات الدالة على أن الإنسان مسير ... أو التساهل أمام الروايات الهائلة المدسوسة في الأحاديث الإسلامية من قبل مستسلمة أهل الكتاب، الدالة علي التشبيه والتجسيم وإثبات الجهة". انتهى كلام السبحاني. [6]

والبعض الذي يعنيه الكاتب، هو الشيخ الألباني فقد عزى الكاتب في حاشية كتابه تضعيف ذلك البعض للحديثين المذكورين إلى "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة"، للألباني.

---

[1] هذا كلام الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة"، ١/٥٣ (١).

[2] ما زال الكلام للسبحاني.

[3] انظر كلام ابن القيم في: المنار المنيف، ص٣٨.

[4] انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ١/٥٣ (١).

[5] انظر: المرجع السابق، ١/٥٤٦، (٣٧٠).

[6] في "الحديث النبوي بين الرواية والدراية". ص٦٣.

ولم يتفضل علينا الكاتب . بعد أن اعترض على قول من قال: إن أحاديث العقل كلها كذب . بإيراد حديث واحد في العقل يدعي صحته، والحديثان اللذان ذكرهما . نقلاً عن الشيخ الألباني . لم يدع صحتهما، ولم ينقل لنا كلام من صححهما.

ثم إن ابن القيم عندما قال . في كتابه المنار المنيف .: "أحاديث العقل كلها كذب"، وكذلك تضعيف غيره من المحدثين أحاديث العقل، كابن الجوزي في كتابه "الموضوعات"، حيث قال: "وقد رُويت في العقول أحاديث كثيرة، ليس فيها شيء يثبت". [1] لم يريدوا بذلك - رحمهم الله . إلغاء العقل وأهمية إعماله في الإسلام، بل قيمة العقل في الإسلام، وإشغاله بالفكر والنظر لمعرفة الحق، كل ذلك قد دعا إليه القرآن، وأثبتته السنة المشرفة، وسار على ذلك الصحابة . رضوان الله عليهم . ومن بعدهم، كما سبق بيانه في الفصل الثاني.

وابن القيم في الكتاب نفسه، بيَّن الضوابط التي يُعرف بها الوضع في الحديث، وذكر منها: تكذيب الحس له، [2] وذكر الأدلة على أن الخضر ليس بباق على مر العصور، وذكر منها عشرة أوجه من الأدلة العقلية على ذلك، [3] إلى غير ذلك مما نقلته عنه في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

أما روايات الصفات والقدر التي زعم الكاتب أنها مدسوسة من قبل مستسلمة أهل الكتاب، فقد سبق مناقشة ذلك في المبحث السابق، وبيان بطلانه.

---

[1] الموضوعات، ١/١٢٣.

[2] انظر: المنار المنيف، ص ٣١.

[3] انظر: المرجع السابق، ص ٣٨-٤٢.

المبحث الثالث

اتباع السلف

يقول جعفر السبحاني:

"إن المتبجحين برفض العقل كابن تيمية، والذهبي، وابن القيم الجوزية، ومن حذا حذوهم ...، قد اتخذوا لأنفسهم موقفاً مسبقاً في مجال أخذ الحديث ورفضه، فالمعيار عندهم هو اتباع السلف ومخالفة الخلف، أخذاً بقول الشاعر:

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

وكلامهم هذا نظير ما حكاه سبحانه عن المشركين، قال: ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.[1]". انتهى كلام السبحاني.[2]

أما كلامه عن رفض هؤلاء الأئمة - رحمهم الله - للعقل، فقد سبق الكلام على ذلك في المبحث السابق، وفي الفصل الأول.

وكلامي هنا عن تَنَقُّصِ السبحاني لمن جعل معياره اتباع السلف، وغمزه من سلك هذا المسلك، ولو قال ذلك أحد من غير المسلمين لهان الأمر، فما بعد الكفر ذنب، ولكن أن يقول ذلك من يقول: إنه مسلم، ويتحدث باسم الإسلام، فهذا العجب!

وكيف وصل لنا هذا الدين الذي أكمله الله لنا، ووعد بحفظه، إلا عن طريق السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم - رضوان الله عليهم -!

فالله سبحانه أمرنا في كتابه بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج بيت الله، وغيره ذلك من فروض الدين، أما تفصيل ذلك فقد ورد في السنة المطهرة، التي أمرنا الله بطاعة صاحبها

---

[1] سورة البقرة: ١٧٠.

[2] في "الحديث النبوي بين الرواية والدراية"، ص ٦٤.

عليه الصلاة والسلام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾.[1]

ولم تُنقل إلينا هذه السنة المشرفة إلا عن طريق هؤلاء السلف، فإذا عبنا على من اتبع السلف، فممن تريد ـ أيها العائب ـ أن نعرف أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج الواردة لنا عن طريقهم؟! فمن أراد منَّا أن نطرح الإسلام بالكلية، لما استطاع أن يأتي بأكثر من أن يقول: اتركوا اتباع السلف.

قال شارح العقيدة الطحاوية: "وإذا زعم أحد أنه يأخذ أصول الدين من كتاب الله، ثم لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، المنقول إلينا عن الثقات النقلة، فإنما يتكلم برأيه".[2]

وما ذكرته هنا هو من أقوى الأدلة العقلية على عدالة السلف الصالح في الجملة، فإن الله أمرنا بالإسلام وأحكامه، ووعد من التزم بذلك وتوعد من خالفه، فإذا كان هؤلاء النقلة من الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم ليسوا أهلاً لذلك، بل هم إما كذبة أو أصحاب غفلة ونسيان، ومع ذلك يأمرنا الله باتباع شرعه الذي لم يصل إلينا إلا محرفاً عن طريق هؤلاء النقلة، أليس هذا أمراً بالمستحيل؟! والله منزه عن ذلك.

وجعل الكاتب ـ هداه الله ـ سلفنا الصالح، ومنهم الصحابة، بمثابة الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، وهم عبدة الأصنام، أبناء عبدة الأصنام المذكورين في الآية، كأنه لم يسمع قول الله تعالى في كتابه الكريم عن صحابة رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ

---

[1] سورة النساء: آية ٥٩.

[2] شرح العقيدة الطحاوية، ص١٩٦.

وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾.[1] ولم يسمع قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[2] ولو حصلت منهم هفوات، فإن هذا قليل يسير مغمور في جنب محاسنهم، وكثرة مناقبهم، وصحبتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلهم مهجهم وأموالهم في سبيل الله.[3]

---

[1] سورة الفتح: آية ١٨.

[2] سورة الفتح: آية ٢٩.

[3] انظر: تأويل مختلف الحديث، ص٤٠.

المبحث الرابع

حديث الجساسة

يقول خالد بن مبارك الوهيبي:

"ورواية أخرى تنقلنا إلى عالم الفتن والملاحم وأحداث آخر الزمان، ففي صحيح مسلم من طريق تميم الداري، وكان نصرانياً فأسلم، وفيها أن الموج قد ألقاهم على شاطئ جزيرة، وجدوا فيها دابة تتكلم، واسمها الجساسة، ووجدوا فيها إنساناً عظيم الخلقة، موثقاً بقيود تمنعه من الانطلاق، وقال لهم إنه هو الدجال يوشك على الخروج.[1]

طبعاً الإشكالية تكمن في أمور: نتساءل أين هذه الجزيرة؟ فما من بقعة من بقاع الأرض إلا وقد وطئتها أقدام البشر، وما من بقعة من بقاع الأرض إلا وقد مسحتها الأقمار الصناعية، ولم نجد دجالاً موثقاً، ولم نجد جساسة تتكلم، لديك قانون من خلال نظرك في كتاب الكون أن الحيوانات لا تتكلم، هذه الرواية تصور لنا عالماً أسطورياً آخر، وكذا تفاصيل هذه الملاحم، يمكن للباحث المجد أن يجد أصولها في سفر الرؤيا من العهد الجديد".

انتهى كلام الوهيبي.[2]

أقول: يجب أن يُعلم أن إحاطة البشر قاصرة مهما بلغوا من العلم، فهذه الأرض بقاراتها ومحيطاتها، لا يمكن الادعاء بأن البشر قد وطئوا كل شبرٍ منها، وأقرب مثالٍ لذلك ما يُسمى بالقطب المتجمد الشمالي والجنوبي، فما تزال مجاهلهما خافية على البشر إلى اليوم.

وهب أن الأقمار الصناعية قد مسحت كل بقعة من بقاع الأرض، ألا يمكن أن يكون شيء ما قد خفي على أصحاب هذه الأقمار، ونحن نجد في الواقع أن هناك ما قد

---

[1] الحديث مطولاً رواه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، ٣/٢٢٦١ (٢٩٤٢)، وفيه: "أن تميم الداري ركب سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤا إلى جزيرة ..." الحديث.

[2] في "كيف نتعامل مع السنة النبوية"، ص٤.

خفي عليهم، أفنردُّ حديثاً صحيحاً، ثبت بإسناد صحيح، عمن لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحى، لأن أصحاب هذه الأقمار لم يثبتوا لنا مصداق ذلك؟!

ثم إن الكاتب ينقد الحديث ويرده لأن الجساسة تكلمت في حال أن قانون الكون يقول: إن الحيوانات لا تتكلم، ونسي أو تناسى بأن الله قادر على إنطاق ما شاء، متى شاء، فقد تكلم الهدهد مع سليمان ـ عليه السلام ـ، يقول الله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.[1] إلى قوله: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.[2] إلى آخر الآيات. ويقول سبحانه في سماع سليمان لكلام النمل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.[3] فالله قادر على إنطاق ما شاء من الحيوانات، وقادر على تفهيم من شاء من كلامهم.

---

[1] سورة النمل: آية ٢٠.

[2] سورة النمل: الآيات ٢٢، ٢٣.

[3] سورة النمل: آية ١٨.

الفصل الرابع

ضوابط تمحيص السنة بالعقل

لِتمحيص السنة بالعقل ضوابط، ينبغي الالتزام بها عند سلوك هذا المسلك، وقد جمعت في ذلك خمسة ضوابط، لم أقف على من جمعها أو نص عليها، وقد جمعتها من خلال تتبعي لكلام أهل العلم المتفرق في ذلك:

الضابط الأول: معرفة أن العقل له حدود في الإدراك، مهما بلغ صاحبه من العلم:

فلو أخبر ثقةٌ الناسَ قبل قرن من الزمن، أن هناك من يستطيع أن يتكلم مع مجموعة متفرقة في أطراف الأرض، في نفس الوقت، ويسمعون صوته ويرون صورته، وهو يسمع أصواتهم ويرى صورهم، في نفس الوقت؛ لرد ذلك الجميع، وقالوا عن القائل به: إما أن يكون كاذباً، أو تخبطه الشيطان من المس؛ بناءً على أن ذلك يرفضه العقل رفضاً قاطعاً في ذلك الوقت، ولا يمكن أن يتصوره بحال من الأحوال. وها نحن نجد أن ذلك قد أصبح اليوم واقعاً موجوداً ملموساً، عن طريق الأقمار الصناعية، والشبكة العالمية (الإنترنت)، ووسائل الاتصال الأخرى.

العقل قاصر في هذه الحياة، وله حدود لا يمكن أن يتخطاها، وهذا أمر ملاحظ في واقع حياتنا، فكثير ما يظهر لنا أن وجه الصواب في أمر ما هو كذا قطعاً، ونرى أن لا صواب غيره، وإذا بنا نكتشف بعد ذلك أن رأينا كان أبعد ما يكون عن الصواب، هذا في أمور الدنيا، فكيف إذا كان لها علاقة بتوجيه الشرع، الذي تعتمد أخباره وأوامره أحياناً على أمور لا يدركها العقل.

وفي هذا يقول الصحابي الجليل سهل بن حنيف . رضي الله عنه .: "يا أيها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته".[1]

ويوم أبي جندل الذي يشير إليه سهل بن حنيف، كان في صلح الحديبية.

روى المسور بن مخرمة، ومروان، في حديث طويل لهما، وفيه: "فقال سهيل بن عمرو (للرسول ﷺ): على أن لا يأتيك منا رجل . وإن كان على دينك . إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد، أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي ... . قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟! ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله".[2]

ثم ظهر للصحابة . رضوان الله عليهم . بعد ذلك أن صلح الحديبية كان فيه فتح عظيم للمسلمين، خلاف ما ظهر لهم، ومن مظاهر هذا الفتح ما جاء في نفس الرواية السابقة: "وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم".

الضابط الثاني: التسليم ابتداءً بما جاء بالنقل الصحيح:

إذا علمنا أن للعقل حدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها، وهذا ملاحظ في واقع الحياة، فضلاً عن توجيهات الشرع، فلا بد أن نُسلِّم بما صح على لسان رسوله صلى الله عليه

---

[1] رواه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس، ٦/٢٦٦٥ (٦٨٧٨). ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية، ٢/١٤١١ (١٧٨٥).

[2] رواه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، ٢/٩٧٤ (٢٥٨١، ٢٥٨٢).

وسلم، وهو المبلغ عن ربه، حتى لو حارت فيه عقولنا، فقد يأتي زمان يظهر فيه لأهله وجه الصواب فيما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، والمهم علينا أن نسلم، وهذا هو صفة المؤمنين الذين امتدحهم الله بقوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾.[1]

قال ابن كثير ـ في شرح الآية ـ "وقوله إخباراً عنهم أنهم يقولون: آمنا به، أي: المتشابه، كل من عند ربنا، أي: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، كل واحد منهم يصدق الآخر، ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله، وليس من عند الله شيء مختلف ولا متضاد، ولهذا قال تعالى: (وما يذكر إلا أولو الألباب)، أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة".[2]

وهذه نكتة بديعة أن يُجعَل من يُسلِّم الأمر لله في ما تحار فيه العقول، هم أهل العقول؛ لأن من بلغ الرتبة العليا في العلم حتى في علوم الدنيا، يتضح عنده سعة العلم، وبُعد آفاقه، فعندها يجزم بأن علمه قليل بالنسبة لآفاق الكون العظيمة.

وقد امتدح الله الذين يؤمنون بالغيب، فقال جل شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾.[3] إلى قوله سبحانه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾.[4] وهذا الغيب من الأمور التي قد تحار فيها العقول.

الضابط الثالث: العمل على الجمع بين صحيح السنة والعقل الصريح أولاً:

لا نجد ـ ولله الحمد ـ تعارضاً بين السنة الصحيحة والعقل الصريح، وإن وجد فعلينا السعي إلى الجمع بين ما يظهر فيه التعارض.

---

[1] سورة آل عمران: آية ٧.

[2] تفسير ابن كثير، ٢/ ١٠.

[3] سورة البقرة: آية ٣.

[4] سورة البقرة: آية ٥.

يقول ابن حجر ـ في معرفة الحديث الموضوع ـ: "ومنها ما يؤخذ من حال المروي، كأن يكون مناقضاً لنص القرآن، أو السنة المتواترة، أو الإجماع، أو صريح العقل، حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل".[1]

فقوله: "حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل"، إشارة إلى ضرورة العمل على الجمع بين ما يظهر فيه التعارض، قبل النظر في رد ما صح به النقل.

وقال ـ أيضاً ـ: "جعل الأصوليون من دلائل الوضع أن يخالف العقل، ولا يقبل تأويلاً".

إلى أن قال: "وهذا لا يتأتى إلا حيث لا يمكن الجمع بوجه من الوجوه، أما مع إمكان الجمع، فلا".[2]

الضابط الرابع: عدم التصدر لنقد السنة بالعقل إلا للعلماء العارفين:

إن نقد المتن أشد صعوبة من نقد السند، ولذا يجب أن لا يتصدر لنقد متون السنة ـ ومنه نقد السنة بالعقل ـ إلا لمن بلغ الرتبة العليا في العلم والمعرفة، وفهم القرآن الكريم، ودراسة السنن والآثار؛ لمعرفة ما ينبغي أن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وما لا ينسب إليه، مع تمكنه من اللغة العربية، التي هي لغة الكتاب والسنة، ثم يكون ذا فهم واسع وإدراك عميق بالثوابت العقلية التي يريد أن ينقد السنة من خلالها.

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

"وسُئلت هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط، من غير أن ينظر في سنده؟

فهذا سؤال عظيم القدر، وإنما يعلم ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة، واختلطت بلحمه ودمه، وصار له فيها ملكة، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار، ومعرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه، فيما يأمر به وينهى عنه، ويخبر عنه ويدعو له. فمثل هذا يعرف من أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه وكلامه، وما يجوز أن يخبر به وما لا يجوز، ما لا يعرفه غيره".[3]

---

[1] نزهة النظر، ص٤٢.

[2] النكت على كتاب ابن الصلاح، ص٣٦١.

[3] المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ص٢٦.

وقال ابن حجر . في الطرق التي بها يُعرف الحديث الموضوع .: "لأهل العلم بالحديث ملكة قوية يميزون بها ذلك، وإنما يقوم بذلك منهم من يكون اطلاعه تاماً، وذهنه ثاقباً، وفهمه قوياً، ومعرفته بالقرائن الدالة على ذلك متمكنة".[1]

الضابط الخامس: عند الحاجة إلى رد السنة الصحيحة بالعقل الصريح، ينبغي أن يكون هناك اتفاق بين أصحاب العقول السليمة على وجود هذا التعارض:

إذا اضطررنا إلى رد السنة الصحيحة بالعقل الصريح، بعد أن لم نتمكن من الجمع . وهذا يعز وجوده .، فينبغي أن يكون هناك اتفاق بين العلماء العارفين أصحاب العقول السليمة؛ لأن المعقول الصريح لا يمكن أن تختلف فيه العقول السليمة، فلا يمكن أن يختلف اثنان من أصحاب العقول أن الأرض تحتنا، أو أن الإنسان لا يمكن أن يكون بذاته في مكانين في وقت واحد، أما إذا كان هناك خلاف، فمنهم من يقول: إن هذا يخالف المعقول، وآخر يقول: إن هذا لا يخالفه، فعندها يجب التوقف عن ذلك، والأخذ بظاهر النص، مادام أنه ورد بسند صحيح.

ولو فتحنا المجال لكل من لا يروق له نص، أو رأى أنه يخالف أصول مذهبه، فيرده بناء على أنه يخالف المعقول، لرددنا كثيراً من النصوص الشرعية، ولما بقي لنا ما نستند عليه في الدين إلا عقول الرجال، فالعقول بطبعها مختلفة، بدلالة القرآن: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾،[2] ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾.[3] وبدلالة الواقع المحسوس، فانظر إلى اختلاف الناس في واقع حياتهم في قرية ما، أو مدينة ما، فضلا عن جميع المسلمين في أنحاء العالم، وهنا يأتي دور النص الذي ينبغي أن تأتلف عليه القلوب.

---

[1] نزهة النظر، ص٤١.

[2] سورة هود: آية ١١٨، ١١٩.

[3] سورة الروم: آية ٢٢.

وفي ذلك يقول ابن قتيبة: "ولو أردنا ـ رحمك الله ـ أن ننتقل عن أصحاب الحديث، ونرغب عنهم، إلى أصحاب الكلام، ونرغب فيهم، لخرجنا من اجتماع إلى تشتت، وعن نظام إلى تفرق، وعن اتفاق إلى اختلاف". [1]

ويقول شارح العقيدة الطحاوية: "إذ العقول متفاوتة، والشبهات كثيرة، والشياطين لا تزال تلقي الوساوس في النفوس". [2]

---

[1] تأويل مختلف الحديث، ص٣٦.

[2] شرح العقيدة الطحاوية، ص٢٠٢.